المبحث الثامن عشر

نفع الناس بحسن المعاملة

إن الله كتب الإحسان وأمر به في كل شيء ، وأعلن أنه يحب المحسنين ، قال تعالى : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

إن المسلم إذا عامل الناس بالحسنى قولاً وفعلاً ، نفعهم ، وذلك لأنهم سوف يرون فيه ما يغريهم بالتعامل بهذا النوع الرفيع المستوى من أنواع التعامل ، وبالعكس : لو أنه أساء معاملتهم أضرّ بهم لأنهم سوف يرون فيه قدوة سيئة ، إضافة إلى أنه سوف يُوغر صدورهم ويشغل أفكارهم ويُضيّع جهودهم عندما يفكرون بالرد عليه ومعاملته بمثل ما عَامَلهم به .

وقد حث القرآن كثيراً في آيات جامعة على معاملة الناس بالحسنى ، قال تعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة : ٨٣] ، وقال أيضًا : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء : ٥٣] .

قال الإمام الشوكاني - رحمه الله - :

« والظاهر أن هذا القول الذي أمرهم الله به لا يختص بنوع معين ، بل كل ما يصدق عليه أنه حسنٌ شرعًا ، وكان من جملة ما يصدق عليه هذا الأمر »[١] .

وقال ابن كثير - رحمه الله - :

« . . . ناسَب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حُسنًا بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل ، فجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي ثم أكد الأمر بعبادته ، والإحسان إلى الناس بالمعيّن من ذلك وهو الصلاة والزكاة »[٢] .

---

(١) محمد بن عليّ الشوكاني « فتح القدير » (١ / ١٥٩) ط. دار الحديث ، القاهرة .

(٢) ابن كثير ، « تفسير القرآن العظيم » (١ / ٤٧٥) ط. مكتبة أولاد الشيخ - القاهرة .

وعلى هذا فالمسلم ينبغي أن يقول القول الحسن ، ويفعل الفعل الحسن ، ويقول الأحسن في النصيحة ، والأحسن في التحية ، والأحسن في الطلب ، والأحسن في العرض ، والأحسن في الردّ والرفض .

وكذلك يفعل الأحسن ، يبرُّ الناس ويُحْسِن إليهم ويُلين لهم جانبه ، ويرفق بهم ، ويكون معهم حسن القضاء حسن الطلب ، ويصدق معهم ، ولا يغشهم ولا يخدعهم، ويفي بعهوده لهم ويتجاوز عنهم إذا بدر منهم ما يستحق المؤاخذة ويعفو عن زلاتهم، ولا يتدخل فيما لا يعنيه من شئونهم، ولا يحسُدهم على نعمة الله عليهم ، ولا يبغضهم بغير سبب، ولا يقاطعهم ولا يخاصمهم ولا يهجرهم ، فإن الخصام والقطيعة والهجران ليس من البر ، ولا يمنع عنهم رِفْده وعطاءه ، لمجرد إساءتهم إليه ، قال تعالى : ﴿ **وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (٢٢) ﴾ [النور : ٢٢] ، سمعها أبو بكر رضي الله عنه فقال : بلى وأعاد نفقته على مسطح بن أثاثة بعد أن قطعها عنه بسبب خوضه مع من خاض في اتهام ابنته العفيفة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها [١] .

والناس أمام إحسان المسلم في معاملته درجات ، وكلٌّ يُبذَلُ له من الإحسان بقدر مَالَهُ من الحق ، فالوالدان وذووا القربى أحق الناس بإحسان المعاملة ، ثم يليهم الضعفاء ذووا الجناح الكسير من اليتامى والأرامل والمساكين ثم عموم الناس ، وهذا ترتيب الله تعالى للناس في الإحسان إليهم ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ** (٨٣) ﴾ [البقرة : ٨٣] .

---

(١) **انظر** : الخبر في « أسباب النزول » للواحدي ، (ص١٨٠) ط. دار الفكر ، بيروت ٢٠٠١م .

قال العلامة القاسمي ـ رحمه الله معلقًا على هذه الآية :

« الإحسان هو الذي يُقوّي غرائز الفطرة ويوثق الروابط الطبيعية، حتى تبلغ البيوت في وحدة المصلحة درجة الكمال،والأمة تتألف من البيوت ـ أي العائلات ـ فصلاحها صلاحها ، ومن لم يكن له بيت لا تكون له أمة ، وذلك أن عاطفة التراحم وداعية التعاون إنما تكونان على أشدهما وأكملها في الفطرة بين الوالدين والأولاد، ثم بين سائر الأقربين،فمن فسدت فطرته حتى لا خير فيه لأهله ، فأي خير يُرجى منه للبعداء والأبعدين؟،ومن لا خير فيه للناس لا يصلح أن يكون جزءً من بنية أمته،لأنه لم تنفع فيه اللُّحمة النسبية التي هي أقوى لحمة طبيعية تصل بين الناس،فأي لُحمة بعدها تصله بغير الأهل فتجعله جزءً منهم،يسرُّه ما يسرُّهم،ويؤلمه ما يؤلمهم،ويرى منفعتهم عين منفعته،ومضرتهم عين مضرته » (١).

« إن أولى الناس بفضل السرور وكرم العيش ، وحُسن الثناء من لا يبرح مسكنه من إخوانه وأصدقائه من الصالحين موطوءًا ، ولا يزال عنده منهم زحام ، ويسرُّهم ويسرُّونه ، ويكونَ من وراء حاجتهم وأمورهم ، فإن الكريم إذا عَثر لم يستقِلْ إلا بالكرام ، كالفيل إذا وَحِلَ لم يستخرجه إلا الفيلة » (٢).

وحجم ومقدار الخير الذي يعود على المجتمع بأسره من جرَّاء معاملة الناس بالحسنى لا يُقدِّره العاقل حق قدره إلا إذا نظر إلى حجم ومقدار الضرر العائد على المجتمع بأسره من جراء سوء التعامل بين الناس :

- آباء وأمهات عقّهم أبناؤهم فلم يحسنوا معاملتهم ! .
- أقارب وذووا رحم تقاطعوا وتهاجروا ! .
- جيران تخاصموا وتقاتلوا ! .

---

(١) محاسن التأويل ، محمد جمال الدين القاسمي (١ / ٣٨٠) ط. دار الحديث ، القاهرة ٢٠٠٣م .
(٢) الأدب الصغير ، ابن المقفع ، (ص٧٥ ، ٧٦) ، مطبعة جمعية العروة الوثقى ، الإسكندرية ، ١٩١١م .

- مساكين ويتامى وأرامل شُرِّدوا وضُيِّعوا ! .
- رذائل وبذاءات وفحش انتشر ! .
- فضائل وقيم وفِعَال خير لم يأبه لها كثير من الناس ! .
- أنانية وأثرة وطمع وحسد وحقد عشعش في القلوب ! .
- كبْر وتعالٍ وطبقية بغيضة شاعت وفشت ! .
- أزواج وزوجات تباغضوا وتفرقوا ، وضاع بسبب ذلك الأولاد ! .
- كل هذا بسبب سوء المعاملة بين الناس ، وغفلتهم عن نداء ربهم : ﴿ **وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا** ﴾ [البقرة : ٨٣] ، وقال أيضًا : ﴿ **وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [الإسراء : ٥٣] .
- وعن نداء نبيهم ﷺ : « **أتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن** » (١) .
- ويا ليت من يجهل طرق المعاملة الحسنة يمكِّن من يَعْلم من نفسه حتى يتعلم.

قال ابن القيم - رحمه الله - :

« أنفع الناس لك رجل مكنك من نفسه حتى تزرع فيه خيراً ، أو تصنع إليه معروفًا ، فإنه نِعْم العون لك على منفعتك وكمالك ، فانتفاعك به في الحقيقة مثل انتفاعه بك أو أكثر ، وأضرّ الناس عليك من مكّن نفسه منك حتى تعصى الله فيه ، إنه عون لك على مضرتك ونقصك » (٢) .

---

(١) سُنن الدارمي برقم (٢٨٣٣) ، والحاكم (١ / ٥٤) ، وقال صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

(٢) الفوائد (ص٢٤٨) ، ط. دار النفائس ١٩٩٨م .